

تفسير ابن كثير

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ

يقول تعالى : (ولقد ذرأنا) أي : خلقنا وجعلنا (لجهنم كثيرا من الجن والإنس) أي :

هيأناهم لها ، ويعمل أهلها يعملون ، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلائق ، علم ما هم

عاملون قبل كونهم ، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض

بخمسين ألف سنة ، كما ورد في صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض

بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء " وفي صحيح مسلم أيضا ، من حديث عائشة

بنت طلحة ، عن خالتها عائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنها ، أنها قالت : دعي رسول

الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله طوبى له ،

عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه . فقال [رسول الله صلى الله عليه

وسلم] أو غير ذلك يا عائشة ؟ إن الله خلق الجنة ، وخلق لها أهلا وهم في أصلاب

آبائهم ، وخلق النار ، وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم " وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود [رضي الله عنه] ثم يبعث إليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أم سعيد " . وتقدم أن الله [تعالى] لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين : أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، قال : " هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أبالي " . والأحاديث في هذا كثيرة ، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها . وقوله تعالى : (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) يعني : ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله [سببا للهداية] كما قال تعالى : (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله [وحق بهم ما كانوا به يستهزئون]) [الأحقاف : 26] وقال تعالى : (صم بكم عمي فهم لا يرجعون) [البقرة : 18] هذا في حق المنافقين ، وقال في حق الكافرين : (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) [البقرة : 171] ولم يكونوا صما بكمما عميا إلا عن الهدى ، كما قال تعالى : (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) [الأنفال : 23] ، وقال :

فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) [الحج : 46] ، وقال (ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) [الزخرف : 36 ، 37] . وقوله تعالى : (أولئك كالأنعام) أي : هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى ، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء [صم بكم عمي]) [البقرة : 171] أي : ومثلهم - في حال دعائهم إلى الإيمان - كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول ؛ ولهذا قال في هؤلاء : (بل هم أضل) أي : من الدواب ؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أفس بها ، وإن لم تفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ؛ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها ، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده ، فكفر بالله وأشرك به ؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده ، ومن كفر به من البشر ، كانت الدواب أتم منه ؛ ولهذا قال تعالى : (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم

الغافلون (